

قضايا علم النفس الكبرى

د. عبد الرحيم تمحري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي- تطوان

لو جاز تعديل عنوان هذه المقالة لقلنا: "قضية علم النفس الكبرى في العشريتين الأخيرتين من القرن العشرين والعشريتين الأوليين من القرن الواحد والعشرين"، ذلك أن القضية الكبرى التي طغت على هذه المرحلة هي المعرفة *La cognition*؛ لدرجة أن البعض أطلق بحقٍ نعت "النزعة المعرفية" *le L'ère cognitive* على المرحلة المذكورة، ووصف بعضٌ آخرَ العصرَ بـ"الحقبة المعرفية" *L'ère cognitive* أما عبارة الثورة المعرفية *La révolution cognitive*، فلقد أصبحت نعتاً دالاً على ما أحدثته المعرفية من تغيرات في علم النفس، ثم ما أصابت به من عدوى في مجالات أخرى في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كعلم نفس الطفل وعلم النفس المرضي، وكعلم الاجتماع، وغيرها. ولا نحتاج إلى ذكر أسماء أخرى دالة على هذه الحركة التي قلبت التصورات والمناهج في علم النفس مثل تسمية: "الموجة المعرفية" *La vague cognitive*.

ومع كل هذا، لا يمكن اختزال علم النفس في هذه النزعة الامبريالية الجديدة على المستوى النظري أي المعرفية، لأنها لا تعدو أن تكون مجرد "صيحة نظرية" جديدة، سرعان ما سيؤدي تطور نظري آخر أكثر جدة إلى إرجاعها إلى الخلف، مثلما حصل للبنىوية والسلوكية والفرو يديّة والإنسانية، وغيرها. ولا بد من استحضار الطابع المتعدد لعلم النفس، وقضاياها، وميادينه، وتياراته ومناهجه.

وليس هذا بأمر جديد في كل العلوم، ومن بينها علم النفس، حيث التغيير مطرد؛ فلم يعد العلماء والمؤرخون والإبستمولوجيون، يتحدثون عن تطور هذا العلم بعد ربع قرن من الزمان كما كان الحال في الماضي، بل بعد كل عشر سنوات، والأدهى بعد كل خمس سنوات، كما أشار إلى ذلك موريكسون وأيضاً وودورث Woodworth مؤلف مدارس علم النفس المعاصرة؛ ذلك لأن ميادين علم النفس دائمة التطور والتجديد والحركة، واقتحام مجالات جديدة تهم العلاج والتربية والشغل والمنظمات المهنية والرياضية والعدالة والسياسة والتسويق والحرب والعلاقات الأسرية والزوجية والفن، الخ.¹

لمقاربة هذا الموضوع "قضايا علم النفس الكبرى"، هناك عدة مداخل :

1-منها استقراء أهم الكتب التي أثرت في مسار تاريخ علم النفس وغيرت وجهه واهتماماته. والحق أن أحد الباحثين (توم باتلر باودن) من الولايات المتحدة الأمريكية (موطن تطور وازدهار علم النفس) انتدبه إلى هذا المدخل، وألف كتاباً يحمل عنوان "أهم 50 كتاباً في علم النفس (من نحن؟ كيف نفكر؟ ماذا نفعل؟)"²، والذي يمكن أن نستخلص منه هذه القضايا في ارتباط بالكتب ومؤلفيها:

فهم الطبيعة الإنسانية (ألفرد أدلر)، الخوف (جافين دي بيكر)، مهارات الناس (روبرت بولتون)، علم نفس تقدير الذات (ناتانيل براند)، المخ والمخ الأنثوي (لوان بريزنداين)، الشعور بالرضا (ديفيد دي بيرنز)، دليل الحياة العقلانية (ألبرت إليس وروبرت إيه هاربر)، أبعاد الشخصية (هانز إيزنك)، المعنى من الحياة (فكتور فرانكل)، الأحلام (فرويد)، الذكاء الوجداني (دانييل جولمان)، إنجاح الزواج (جون إم جوتمان)، أنا على ما يرام وأنت

¹ عبد الرحيم تمحري، علم النفس 1- التيارات والميادين، تطوان، مطبعة الخليج العربي، 2014، ص93 وما بعدها.

Cf aussi Jacques Lecomte, *Grandes notions de la psychologie*, Paris, Dunod, 2017 (2^{ème} édition)

² - توم باتلر - باودن، أهم 50 كتاباً في علم النفس (من نحن؟ كيف نفكر؟ ماذا نفعل؟)، الترجمة العربية، الرياض، مكتبة جرير، 2012.

على ما يرام (توماس إيه هاريس)، المؤمن الحقيقي (إريك هوفر)، اللغة والتفكير عند الطفل (بياجي)، لكي نصير شخصا (كارل روجرز)، ما وراء الحرية والكرامة (ب.إف.سكنر)، السعادة الحقيقية (مارتن سليجمان). وعلى الرغم من أن هذه اللائحة التي انتقينا منها أهم الموضوعات التي تفرض ذاتها بقوة في علم النفس الراهن- علما بأن هذا الكتاب ألفه صاحبه عام 2007- إلا أن المؤلف ما زال "في نفسه شيء من حتى"، وأضاف قائمة أخرى، لخمسين عملا كلاسيكيا في علم النفس؛ منها ما يهم جذور التمييز العنصري لألبورت، وتأثير التوقع في الفعل لألبرت باندورا، والعلاج المعرفي للاضطرابات الانفعالية لأرون بك، وقلق الموت لإرنست بيكر، وسلوك تعلق الطفل بالأم لجون بولبي، والانفعال والعقل والدماغ الإنساني لأنطونيو دامازيو، والتنافر المعرفي والدفاع عن الأخطاء لليون فستنجر، والهروب من الحرية والخضوع للنظم الفاشية لإريك فروم، والعقل المزاج وتغيير الإحساس بتغيير التفكير لدوني كرينبرج وكريستين بادسكي، والبحث في الذاكرة وانبثاق علم جديد للعقل لإريك كاندل، والعدوان لكونراد لورنز، والحب والإرادة لرولو ماي، والوجه الإنساني للمقابلة لدوجلاس ماك جريجور...³

2- وهناك مدخل لأهم القضايا التي تعالجها الكتب الأكاديمية الجامعية في الغرب الأوربي (مهد علم النفس) والغرب الأمريكي (موطن الازدهار والتطور)، والتي يدرسها الطلاب ويبحثون فيها. كما تعالج المؤلفات من صنف الدراسات الوثائقية والإحصاء البيبليوغرافي (أو ما يعرف بالمسرد) في هذا العلم. ومن الأمثلة التي يمكن أن نُقدمها:

1-2 مجلة Perspectives on Psychological Science التي نشرت عام 2009 ملفا خاصا عن "الأسئلة الكبرى في علم النفس" واستدعت لذلك عشرين عالما سيكولوجيا مشهورا ليقدموا كل واحد في ميدانه- ما يبدو له أنه يمثل التحديات المستقبلية الكبرى لمادته. وبعد الفرز، تم الإبقاء على ثمانية عشرَ موضوعا⁴ منها:

- ما يربط بين الفكر والدماغ؛
- وماله علاقة بين الدماغ والنفس داخل إطار علم النفس العصبي المناعي.
- ولائحة بالحالات العقلية الأساسية من وجهة نظر فينومينولوجية هي: الإدراك والانفعالات والتفكير.

2-2 في حين ركز جاك لكونت على موضوعات مثل:

• الحرية والحتمية،

• والتشابهات والاختلافات بين الإنسان والحيوان،

• وأدوار العقل والانفعالات.⁵

2-3 أما سيرج نيكولا و لودوفيك فيران في كتابهما: "التيارات الكبرى في علم النفس الحديث والمعاصر (تاريخ وثائقي للأنساق والمدارس السيكلوجية)"، فإن التيارات الكبرى التي درسها هي:

- البنيوية (فونت- وتيتشنر)،

³ - المرجع السابق، صص 333-343

⁴ - Jean François Dortier, *les prochaines grandes questions de la psychologie*, le cercle psy, article modifié le 15/06/2011.

- Jacques Lecomte, *Grandes notions de la psychologie*, Paris, Dunod, 2017

⁵- Serge Nicolas et Ludovic Ferrand, *Des grands courants de la psychologie moderne et contemporaine*, De Boeck Supérieur, 2009.

- الوظيفية (جيمس وديوي)،
- السلوكية (واطسون وسكينر)،
- الجشتالتية (ارنهفيلس وكوهلر)،
- التحليل النفسي (فرويد)،
- المعرفية (ميلر ونيسر).

4-2- أما إحصاء عناوين الكتب في علم النفس والعلوم المرتبطة به، خلال العشرين سنة الأخيرة، والذي قام به أكبر فهرست محفظ بالحاسوب على المستوى العالمي (Psyclit) للمطبوعات في علم النفس والعلوم المتصلة بها، فقد أسفر عمّا يلي:

- عدد عناوين الكتب والمجلات في علم النفس، انتقل من عشرين ألف عنوان إلى أربعين ألف عنوان.
- عدد عناوين الكتب والمجلات في علم النفس، انتقل من خمسمائة عنوان إلى ألف عنوان فقط، وذلك بنسبة 2%.
- في عام 1994، وصل عدد المطبوعات إلى اثنين وأربعين ألفاً وثلاثمائة وثمانية وثلاثين مطبوعاً (42338)، نظمها بنك المعلومات والمعطيات في 157 فئة. إلا أن قطاعين فقط تمكنا من نيل حصة الأسد بنسبة 20/ من المطبوعات، منها:
- ❖ قطاع علم النفس المرضي بالمعنى العام الذي يتضمن النقائص الفيزيائية (كفقدان البصر ورجات الجُمجمة) والاضطرابات العقلية.
- ❖ علم نفس الصحة والوقاية (خاصة مشكلات إدمان الكحول، والجريمة)⁶.

2-5- في مؤلفات، أخرى سنجد أن الموضوعات عموماً هي:

- الإدمان (بمختلف أنواعه، المخدر، الجنس، الانترنت...)
- والتعلم (واستراتيجيتها لدى المتعلمين)،
- والاتجاهات (نحو الناس والأشياء والأفكار...)
- والمعرفة (وعلاقتها بالدماغ والعاطفة والمجتمع...)
- والهويات (كيفية بنائها، وسيروراتها واضطراباتها)،
- والتحفيز (في مختلف الميادين وأنواع العوامل...)
- والاضطرابات النفسية والعقلية (عواملها ومظاهرها وعلاجاتها...)
- والجنسانية والهويات الجنسية والصحة النفسية.

بعد هذا، نحتاج إلى إزالة اللبس عن بعض العناصر الخاصة بهذه القضايا الكبرى في علم النفس.

⁶ Alain Lieury, *la psychologie est elle une sciences*, Pans, Flammarion, 1997, pp 9 a 35, cite in : URL:

<https://www.cairn.info/la-psychologie-est-elle-une-science-9782080355287-page9.htm>

Par exemple : André Didier Jean, *Psychologie cognitive*, De Boeck, 2019.

صحيح أن الموجة المعرفية، (علم النفس المعرفي) هي التي تأخذ الألباب ولكنها تتداخل مع موجة العلوم العصبية Neurosciences وعلى الأخص مع علم النفس العصبي Neuropsychologie.

فأما عن العنصر الأول، (علم النفس المعرفي Psychologie cognitive) الذي يدرس الكيفية التي يشتغل بها الفكر الإنساني، وماذا يجري داخل الدماغ عندما نلاحظ العالم من حولنا، وما تأثير معارفنا على إدراكنا، وما أنواع الذاكرة، وكيف نستدل عقليا... فقد أُلقت فيه كتب وأُفردت له بعض المواقع – المتخصصة في علم النفس عامة والصحة أساسا- هو مواقع Uni thèque، صفحات تنشر فيها مؤلفات علم النفس المعرفي، والتي تتوزع بين مجالات عديدة، يمكن أن نجملها في:

• الذاكرة والنجاح المدرسي.⁷

• اضطراب اختلال الوظيفة المعرفية وإفراط النشاط الحركي.⁸

• الكفايات العاطفية.⁹

• الدماغ: علمه، مكوناته، ووظائفه (الذاكرة، الانفعال، الوعي، اللغة)¹⁰

• اضطرابات السلوك لدى الأشخاص الناقصي القدرات العقلية، والإثارة المعرفية لدى الشيوخ.¹¹

• كيف يفكر الأشخاص التوحديون، وكيف نفهم اضطراباتهم الحسية والذاتية؟¹²

وأما عن العنصر الثاني (علم النفس العصبي Neuropsychologie) فهو متداخل مع علم "النفس المعرفي" (كموجة جديدة)، ومع فرع قديم من فروع علم النفس هو "علم النفس الفسيولوجي"، الذي سبق لفلهم فوندد أن أبداع فيه كتابه الذي جعل علم النفس يدخل في مصاف العلوم ويغادر ساحة الفلسفة والميتافيزيقا، ويدخل المختبر التجريبي. ولاشك أن فسيولوجيا الدماغ تحتل الصدارة داخل علم النفس الفسيولوجي.

من الموضوعات التي عالجه هذا العنصر الثاني (علم النفس العصبي):

• الأسس العصبية للاشعور والسيرورات العليا للتفكير.¹³

• بيولوجية الشعور: شعور الجسد والدماغ.¹⁴

• علم النفس العصبي الإكلينيكي للانفعالات.¹⁵

• سلطة النوم والأحلام.¹⁶

• موقع علم النفس العصبي في الطب العقلي.

⁷ Alain Lieury, *Mémoire et réussite scolaire*, Dunod, 2020 (4^{ème} Edition)

Stanislas Dehaene, *Les sciences au chevet de l'école*, Odile Jacob, 2019.

⁸ Fanny Ayanougrou et Céline Alcaraz, *TDH des enfants et adolescents (l'apport des thérapies cognitives et comportementales)*, Ed. Tom Pousse, 2020.

⁹ Moira Mikolajczak et al. , *Les compétences émotionnelles*, Dunod, 2020. (2^{ème} Ed.)

¹⁰- Lionel Naccache, *Parlez-vous cerveau?* Odile Jacob, 2020.

- Joel Daphna et Luba Vikhanski, *Le cerveau a-t-il un sexe ?* Albin Michel, 2020.

- Pascale Toscani, *Comprendre le cerveau de son enfant*, Hatier, 2019.

¹¹ Cyrielle Richard, *Savoir pour guérir : les troubles du comportement chez les personnes déficientes intellectuelles*, Ellipses, 2019.

¹² Nathalie Barabe, *Troubles sensoriels et subjectivation chez les personnes autistes*, l'Harmattan, 2019.

¹³ Laurence Greenman, *Fondations neurologiques de l'inconscient et des processus de réflexion supérieur*, éd. Omniscriptum, 2020.

¹⁴ Ravikumar Kurup, *Conscience du corps et du cerveau : la biologie de la conscience*, éd. Omniscriptum, 2020.

¹⁵ Julie Péron, *Neuropsychologie clinique des émotions*, éd. Dunod.

¹⁶ Matthew Walker, *Pourquoi nous dormons : le pouvoir du sommeil et des rêves*, ed. Pocket, 2020.

إن الاستنتاج الذي نخرج به هو أن القضايا الكبرى في علم النفس بصيغة المطلق لم تعد كذلك كما كانت في الماضي (القرن 19)، نظرا للتخصصات التي عرفها هذا العلم والتيارات والمدارس التي انبثقت داخله. هكذا أصبح الحديث الجديد هو: ما هي القضايا الكبرى داخل علم النفس السريري (الإكلينيكي) وعلم النفس المرّضي؟ ما هي القضايا الكبرى داخل علم نفس الشغل والمنظمات؟ وما هي القضايا الكبرى داخل علم النفس المعرفي؟ وما هي القضايا الكبرى داخل علم النفس التربوي؟ وما هي القضايا الكبرى داخل علم النفس الاجتماعي؟ الخ

ومع ذلك، يمكن الاعتراف بأن النزعة المعرفية *cognitivism* قد تحولت من إطار لبحث موضوعات آليات اكتساب المعارف (الأنشطة الإدراكية والتعلمات والذاكرة وكيفيات التمثل الرمزي وحل المشكلات، ومسائل اللغة...) إلى فاعليات تُسهّم في نمو المعارف وصيانتها واستخدامها لدى العضويات¹⁷ والآلات، إلى موقف إبستمولوجي شمل علوماً أخرى وهيمن عليها مثل: علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الطفل وعلم النفس المرّضي (التوحد والفصام) وعلم النفس اللاشعور، وعلم النفس الصحة (المناعة) وعلم النفس الثقافي (أعمال فيكوتسكي وبرونر).¹⁸

كما يمكن التصريح بأن قضايا جديدة فرضت نفسها على علم النفس، مثل:

- علم نفس التطرف والإرهاب (بفعل الأحداث التي يعرفها العالم في موضوع التطرف الديني والإرهاب الدولي مع تفجيرات 14 سبتمبر وظهور ما يسمى بالدولة الإسلامية في العراق والشام أي داعش).
 - علم النفس السياسي (لفهم كيف يصعد زعماء وكيف يسقط آخرون، وكيف تهيج الجماهير تحت ضغط الأيديولوجيات، وكيف تنهار...)
 - علم النفس الهويات الجنسية (بفعل حركات التحرر النسائية، والدفاع عن حقوق النوع (الجندر)، والتحوللات الجنسية لبعض الذكور، وتشريع الزواج المثلي وتبني الأطفال داخله)
 - علم النفس الديني (أي الآليات المتحكمة في إرادة الاعتقاد، وعلاقة الدين بالأمراض النفسية العُصابية، والإيمان والتفاؤل والتشاؤم، وآليات التحول الديني في العالم المسيحي والعالم الإسلامي، والصلاة ودورها العلاجي، والتصوف وعلاقته بالرضا والطمأنينة...)
 - الطرق الجديدة في العلاج النفسي (دور التواصل الجيد، والحوار المنفتح، والعلاج بالموسيقى، والعلاج بالفن، والعلاج بالقراءة، والعلاج بامتلاك الحيوان، والعلاج بالطبيعة وخرير المياه)، الخ.
- وختاماً، إن الحيز المحدود الذي فرضته هذه المساحة هو الذي جعلنا نتوقف عن تعميق التحليل والاكتفاء بالإشارات في بسط قضايا علم النفس الكبرى.

د. عبد الرحيم تمحري

أستاذ علم النفس وعلوم التربية.

¹⁷ Françoise Parot et Marc Richelle, *Introduction a la psychologie – Histoire et méthodes*, Paris, PDF, 1992, P.2020.

¹⁸ Gaëtane Chapelle, psychologie : *L'ère cognitive*, in : *revue des sciences Humaines*, N 100, Décembre 1999, PP. 38-39.

د. عبد الرحيم تمحري



أستاذ باحث في علم النفس وعلوم التربية. حاصل على دكتوراه الدولة في علم النفس من جامعة محمد الخامس بالرباط. أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان. له عشرة مؤلفات بشكل فردي، وستة مؤلفات مشتركة، وعدة دراسات بالمجلات و عدة مقالات بالjournaux.